المكابر الثامن
«إنما أوتيته على علم عندي»

حينما يفقد الإنسان القدرة على التفكير السليم، والرؤية السديدة لحقائق الأشياء، وحينما تنطمس البصيرة التي تساعد صاحبها على رؤية الحق، فإن الإنسان يتحول في هذه الحالة إلى مستوى هو أدنى من مستوى البهائم.

﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

لماذا يهبط الإنسان المكابر المصاب بعمى البصيرة إلى هذا المستوى المتدني؟.

لأنه يصبح أعمى البصيرة، مطموس الفطرة، فلا هو في منزلة الحيوان الذي يتصرف بفطرته، ولاهو في منزلة الإنسان الذي يتصرَّف بعقله ووعيه، وهنا يهبط الإنسان المكابر إلى ما هو أدنى من منزلةِ الحيوان.

لا يمكن لصنف من أصناف الحيوان أن يقول كلمة الكفر والجحود والإنكار لله عز وجل.

بينما يقول الإنسان المكابر ذلك.

لا يمكن لأي صنف من أصناف الحيوان أن يغفل عن تسبيحة لربِّه فهو مرتبط بالله بطبعه.

أما الإنسان فيتعمد أن يقول كلمات الكفر والجحود، متجاوزاً بذلك مرحلة الغفلة عن ذكر الله وتسبيحه «وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده».

فكل المخلوقات تسبح الله بطريقتها الخاصة والمكابر ينقطع عن هذا التسبيح.

لا يمكن لأيٍّ صنف من أصناف الحيوان أن ينحرف من حيث الممارسات الجنسية عن طبيعته التي خلق عليها أما الإنسان المكابر فهو يرتكب أسوأ الأفعال في هذا المجال.

إن لسان المكابرة لسان بذيء، مجبول على النطق بما يسوء من الكلام، والتحدث بما لايجوز من العبارات وادِّعاء ما لايصح من الأعمال والأقوال.

هذا مكابر عنيد، فتح الله له خزائن الدنيا فما زال يجني منها ويزداد ثراءً حتى أصبح مضرب مثل في ذلك. أموال طائلة، وأملاك عظيمة، وترف لا يكاد يصدقه من رآه.

خزائن الأموال مازالت تكثر عدداً حتى أصبحت عبئاً عليه. وحتى غدت مفاتيحها حملاً ثقيلاً تحتاج إلى عدد من الرجال يتعاونون في حملها.

دنيا مفتوحة على مصراعيها لهذا الإنسان، يحصد المال حصداً ويبني من الحصون ما أراد، ويقيم من المزارع والبساتين ما أراد.

كل شيء من متاع الدنيا بين يديه.

نعمة عظيمة، حقُّها على صاحب القلب السليم الشكر لله عز وجل على ما سخَّر منها وأنعم.

أما الإنسان المسكون بالجحود والمكابرة فله مع النعمة شأن آخر.

غرور، كبرياء، إعجاب بالنفس، استهانة بالناس، انغماس في الملَّذات المحرَّمة، ابتعاد عن طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته.

هذا هو شأن هذا المكابر الذي أنكر فضل الله عليه وقال وهو في سكرة غروره.

«إنما أوتيته على علم عندي».

يقول: هذا المال الكثير، وهذه النعمة العظيمة جاءت من معرفتي وذكائي ودرايتي ومقدرتي وليس لأحد فضل في وجودها.

وهو بهذا القول يتناسى خالقه المنعم المتفضِّل، وهنا تكون لحظة الانحدار من الإنسان إلى ما هو أقلُّ من مستوى الحيوان.

إلى أين يتجه هذا الغيُّ المترف المكابر؟ وإلى أيِّ نهاية تسوقه مكابرته؟؟

من هذا المكابر الذي قال هذه الكلمة العظيمة جاحداً بها فضل ربِّه؟

هو: قارون بن نبصهر بن قاهت.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى وكان اسم موسى عليه السلام: موسى بن عمران بن قاهت.

وقال بعضهم: إنه عمٌّ موسى، ولكن ابن كثير نقل عن ابن جرير الطبري في تفسيره للآيات الخاصة بقارون في سورة القصص قوله: وأكثر أهل العلم على أن قارون ابن عم موسى، وقال قتادة بن دعامة فيما نقله عنه ابن كثير في التفسير: كان قارون يسمَّى «المنوِّر» لحسن صوته حينما يتلو التوراة.

قال الرواة: مازال المال والثراء بقارون حتى نافق، وانحرف عن الطريق المستقيم، وهجر التوراة، وزاد في طول ثيابه شبراً يجرُّها على الأرض ترفعاً عن قومه وكبراً وبطراً.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بقصة قارون في آيات بينات في سورة القصص، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها أنه كان من قوم موسى فبغى عليهم.

وامتن الله عليه بما أنعم عليه من النعمة

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76].

قال المفسرون: الكنوز هي الأموال الكثيرة التي امتلأت بها الخزائن حتى أصبحت المفاتيح ثقيلة على الفئام من الناس لكثرتها.

قال خيثمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من الجلود، كلُّ مفتاح منها مثل الإصبع، لكلِّ خزانة مفتاح خاصٌّ بها، فإذا ركب حملت مفاتيحه على ستين بغلاً أغرَّ محجَّلا.

ونحن نقول: مهما كان العدد الذي بلغته تلك المفاتيح، ومهما كان عدد الخزائن والبغال التي تحملها، فإن العبرة بهذه الثروة الطائلة ابتلي بها قارون.

الثروة التي صرفته عن الإيمان، وتلاوة التوراة، وأبعدته عن ابن عمه موسى عليه السلام، كما أبعدت السَّامريَّ الذي صنع العجل ودعا إلى عبادته في غياب موسى.

والذي يبدو من أقوال المفسرين، وهو ما تدل عليه الآيات القرآنية أن قارون قد جاوز الحدَّ في التطاول والكبرياء والاحتقار الناس مما جعل قومه كلَّهم كما دلَّت على ذلك الآية:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ [القصص: 76].

ومعنى ذلك أن الرجل قد بلغ من المكابرة والجحود مبلغاً لم يجد معه أحداً من قومه يؤيده، ولذلك وجهوا إليه النصيحة. «لاتفرح».

أي: لاتبطر بما أنت فيه من الأموال، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحب الفرحين «أصحاب الأشر والبطر والاغترار» الذين لا يشكرون الله سبحانه وتعالى على ما آتاهم من فضله ونعمته.

لقد كانت نصيحة قوم قارون له شاملة لمعان كثيرة، دالّةً على حرصهم على مصلحته، وإشفاقهم عليه من النهاية السيئة التي ينتهي إليها المكابرون الجاحدون فيما جُرِّبَ فيه سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون.

لقد دعوه إلى التوسط في الأمر، وعدم الإفراط أو التفريط:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77].

نصيحة واضحة، غالية جداً عند من يقدِّر ثمن النصائح والمواعظ، أما المكابر فإنه يصرف نظره عنها محتقراً لها ولأصحابها.

هذه النصيحة البليغة ذهبت أدراج الرياح، ولم يصل منها إلى قلب قارون حرف واحد.

ما لدليل على ذلك؟

الدليل قوله الذي دلَّ على غفلته ومكابرته وغروره: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78].

قال قولته هذه مكابراً، بعيداً عن الإحساس بفضل الله ونعمته عليه.

إن معنى كلامه هذا أنه ينفي افتقاره إلى الله ولا يذكر ما نصحه به قومه، ويعتقد أنه يستحق هذه النعمة لما له من الفضل، وكأنه يقول:

إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولأنه يحبني، ويعلم أنني أهل لهذه النعمة.

وورد عند بعض المفسرين أن قارون أراد بكلامه هذا أنه كان يعالج علم الكيمياء وكان به عارفاً، وقد أنكر ابن كثير هذا القول وأخبر أنه بعيد عن الصواب لعدم ثبوته.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله فتموَّل بسببه ونال ما نال من الثَّراء، ويؤكد المفسرون أن المعنى الأول هو الأصح، فالرجل اغترَّ بنفسه حتى رأى أنه مستحق للنعمة كما قال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قال قارون: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال.

منطق مقلوب، ورؤية قاصر، وتفكير معطَّل، وبصيرة عمياء ولذلك استمر قارون في مكابرته، كما استمر قبله فرعون، فماذا كانت النتيجة؟؟

خرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمُّل باهر، ومظهر أدهش الناظرين، وحرَّك أشجان الفقراء والمساكين.

مراكب فارهة.

ملابس غالية الثمن برَّاقة الألوان.

بغال وخيول نادرة.

خدم وحشم.

إنه موكب «الغفلة» بلا شك.

هنا انبهر الناس، وتطلَّعت نفوس الضعفاء الذين أعجبهم بريق المظهر، وتاقت نفوسهم إلى شيء من نعيم الدنيا حتى قالوا: ﴿**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص: 79] أمنيَّةٌ صريحة، وحلم واضح، وتفسير خاطىء لهذا المظهر البرَّاق. ﴿**إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص: 79].

بل هو أسوأ حظ لإنسان خرج عن دائرة الخضوع لله رب العالمين، هنا تحرك أهل العلم، وقد رأوا هذا المظهر القارونيَّ المثير، وسمعوا تلك الأمنيَّةَ التي تمنَّاها الناس، وقالوا واعظين:

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 80].

وهذا توجيه إلى ما عند الله من الخير العظيم لعباده المؤمنين الذين سيرون في الجنة ـ إن شاء الله ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

موقف مثير تتكون لوحته العجيبة من ثلاثة مناظر:

1- قارون في مظهره وثرائه ومراكبه وخدمه وحشمه.

2- الميالون إلى مظاهر الدنيا من البشر.

3- العلماء الذين يعرفون أن الدنيا متاع زائل لا قيمة له.

فهي لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

أين يقع الحق من هذه اللوحة العجيبة؟

لا مجال للإجابة المفصلة عن هذا السؤال، ولا مكان للكلام والمناقشة والجدال، ولا موقع للاستشهاد والاستدلال عجباً، فأين نجد الجواب؟!

الجواب مباشر لايحتاج إلى تفكير.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: 81].

انتهى في لحظة واحدة كل شيء في حياة قارون.

انتهى المال، والجاه، والدار الكبيرة والمفاتيح الثقيلة، والخزائن المليئة بالأموال الطائلة، وقارون الذي يجرُّ ثوبه وراءه شبراً بطراً وخيلاءَ.

كل ذلك انتهى، إذ ابتلعت الأرض بأمرٍ من خالقها قارون وما معه، والناس ينظرون، ولايكادون يصدقون ما تراه عيونهم.

هنا استيقظ الغافل، وتعلم الجاهل، واستغفر المتجاوز للحد، واطمأنَّ الخائف الوجل، وهدأت نفس الطامع.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: 82].

وقد ذكر بعض الرواة أنَّ هلاك قارون كان بسبب دعوة عليه من نبي الله موسى عليه السلام، وذكر لذلك أسباباً:

قال ابن عباس: إن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالاً على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني اسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله فتقول:

يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت لموسى ذلك أرعد من الفَرَق والخوف، وأقبل عليها بعدما صلى ركعتين ثم قال لها: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ماقلت؟

فقالت: أمَّا إذ نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول لك ما قلت، وأنا استغفر الله وأتوب إليه.

عند ذلك خرَّ موسى ساجداً، وسأل الله أن يستجيب له في قارون، فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه.

فأمر موسى ـ بإذن الله ـ الأرض أن تبتلع قارون وداره فكان ذلك.

ورويت القصة بوجه آخر:

قيل: إنَّ قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمرَّ في مظهره ذلك على نبي الله موسى عليه السلام، وهو يذكر الناس بأيام الله ويعظهم، فلما رأى الناس قارون ومظهره التفتوا إليه، يتعجبون مما هو فيه فدعاه موسى وقال له: ما حملك على ماصنعت؟

فقال في غطرسة وكبرياء:

يا موسى إن كنت قد فضلت عليَّ بالنبوة، فلقد فضِّلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن ولتخرجن، فلتدعون عليَّ وأدعو عليك.

فخرج موسى وخرج قارون معه و هو في خدمه وحشمه.

فقال موسى: تدعو أم أدعو أنا؟

قال قارون: بل أنا أدعو، فدعا فلم يستجب له.

ثم دعا موسى عليه السلام قائلاً: اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم.

فأوحى الله إليه أني قد فعلت.

فقال موسى: يا أرض خذيهم؟، فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم؛ ثم قال موسى: أقبلي بكنوزهم وأموالهم.

قال: فأقبلت بها حتى رآها الناس.

ثم أشار موسى بيده فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة.

نهاية يستحقها المكابر، حدثت بالصورة التي قدَّرها الله سبحانه وتعالى، وإني لأعجب ـ أيها الأحبة ـ من المكابرة كيف تطغى على عقل صاحبها، فيصبح بلا تفكير.

إن كل موقف من مواقف قصة قارون يدل على أنه كان معطل التفكير تماماً، وهذه سمة أهل المكابرة.

لو لم يكن أعمى البصيرة لما واجه موسى بهذه المكابرة مع أنه يعلم بنبوة موسى وبما أوتي من المعجزات.

حتى حينما اتفق هو موسى على الدعاء.

دعا قارون فلم تستجب دعوته، ألم يكن الأولى به هنا أن يراجع نفسه وأن يتوب إلى رشده، وأن يطلب من موسى عليه السلام عدم الدعاء عليه؟؟